القدس من الفتح إلى التحرير مرورًا باحتلالها من قبل الفرنجة

أ. حسين الديك

باحث فلسطيني

المقدِّمة

تُعَدُّ مدينة القدس محورَ الصراع عبر التاريخ، فقد تعاقب على احتلالها عددٌ من الدول والحضارات القديمة، والتي أقامت فيها لسنين، بل لعقود طويلة وقرون، وتنبع أهمِّيَّة مدينة القدس من المكانة الدينية التي تتمتَّعُ بها؛ إذ تُعَدُّ مهدَ الأديان والرسالات السماوية، فالمكانة الدينية للمدينة تجعلها محطَّ أنظار كلِّ العالَم في وُجْهتهم الدينية إليها، وفي أن يكون لهم موطئ قدمٍ عليها.

ويتَّسع الحديث عن القدس وتاريخها، عَبْرَ الأزمان الغابرة والسنين، فلها تاريخ حافل بكثيرٍ من الأحداث التي يحتاج البحث فيها إلى كثيرٍ من الجهود والدراسة المتواصلة، ولكن في هذه الدراسة سوف نتناول تاريخ القدس، في فترة محدَّدة، وخاصّة بموضوع الدراسة، وهي الفترة التي دخلت فيها القدس في الإطار العربيِّ الإسلاميِّ، وأصبحت جزءًا من

الدولة العربية الإســلامية، أي منذ أنْ فَتَحَها الفاروق عمر بــن الخطاب، إلى أنْ حَرَّرَها الناصر صلاح الدين الأيّوبيّ من الفرنجة، مع التركيز على الطابَع الإســلاميِّ، والمسيحيّ العروبيّ للمدينة المُقدَّسة وإعطاء نبذة تاريخية في البداية عن تاريخ المدينة المُقدّسة.

وستتناول هذه الدراسة ثلاثةَ محاوِرَ رئيســةٍ، الأوّل: الفتح العربيُّ الإسلاميُّ للمدينة المُقدَّســة على يد الخليفة الراشــديِّ عمر بنِ الخطاب، والثاني: الحمــلات الفرنجية على القدس واحتلال الفرنجة إيّاها، والثالث: تحرير مدينة القدس بقيادة صلاح الدين الأيّوبيّ وعودتُها إلى عهدة المسلمين.

المحــور الأول: الفتح العربيُّ الإســلاميُّ لمدينة القدس على يد الخليفة عمر بن الخطاب عام 636 م

يُعَدُّ الأســاسُ العربيُّ للقدس هو الأســاسَ الأهمَّ والأقوى، فــأوَّل الجماعات التي ســكنت المدينة هي جماعات عربيــة قَدِمت من الجزيرة العربية، ويُعَــدُّ النبيُّ محمد، عليه الصلاة والسلام، أوَّلَ مَنْ أطلق اسم بيت المقدس على القدس التي كانت تُعرف بإيلياء، ويُشير اصطلاح بيت المقدس إلى إقليم فريد غنيٍّ بخلفيَّة تاريخية، وأهمِّيَّة دينية، وارتباطات ثقافية، وبادِّعاءات سياســية ودينية تنافسية، واهتمامات دولية، وجوانبَ متعدِّدةٍ تؤثِّر في بقيّة العالَم، وبيت المقدس ذو طبيعة حيويّة ذات ثلاثة عناصِرَ، مترابطةِ الأرض والحدود، والسّكّان، ورؤية خلّاقة شاملة لإدارة أرضها وشعبها؛ بوصفها أُنموذجًا للتعدِّدية الدينية والثقافية (العويسي 2006، ص 43 – 44).

يُعَدُّ الأســاسُ الإســلاميُّ، في مدينة القدس، ســابقًا لفتحِها في عهد الخليفة عمر بنِ الخطّاب، فقد زارها الرسول محمد، عليه الصلاة والسلام، في ليلة الإسراء والمعراج، وفي هذا دلالة ربانيّة للارتباط العربيّ الإســلاميّ بمدينة القــدس المباركة، إذ جاء في القرآن الكريم في ســورة الإسراء قوله تعالى: «سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ

إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ». وفي الحديث النبويّ الشريف قولُ الرسول، عليه الصلاة والسلام: «لا تُشَدُّ الرِّحالُ إلّا إلى ثلاثةِ مساجِدَ، المسجدِ الحرامِ وَمَسْجدي هذا، والمسجدِ الأقصى»، وقد أرسل الرسول، عليه الصلاة والسلام، جيشًا بقيادة زيد بن حارثةَ إلى بلاد الشام، وكانت معركة مؤتةَ هي البدايةَ في التحرُّكِ العربيِّ الإسلاميِّ لتحرير القدس في عهد النّبيِّ، عليه الصلاة والسلام (الزبدة 2000، ص 77 – 78).

وتُعَدُّ مدينة القدس المدينةَ الوحيدةَ من مُدُنِ بلاد الشام التي فتحَها المسلمون، والتي زارها الخليفة عمر بن الخطاب، وهذا دليلٌ على مكانة مدينة القدس في الإسلام، بل على مكانتها في الأديان السماوية الثلاثة، والقدس مدينة الأنبياء الذي يُعَدُّ الإيمان بهم رُكنًا من أركان العقيدة الإسلامية، وللارتباط العربيِّ الإسلاميّ بالقدس أصولٌ من سُنَّةِ النّبيّ محمد، عليه الصلاة والسلام، في الأحاديث الشريفة، حيث قال: «مَنْ أراد أنْ يَنْظُرَ إلى بُقْعَةٍ مِنْ بُقَعِ الجَنّةِ فَلْيَنْظُرْ إلى بيتِ المَقْدِسِ». وفي حديثٍ آخَرَ قال: «مَنْ زارَ بَيْتَ المَقْدِسِ؛ شَوْقًا إِلَيْهِ دَخَلَ الجَنَّةَ»، وفي حديث آخَرَ قال: «لا تَقومُ السّاعةُ حتّى تُزَفَّ الكَعْبةُ إلى الصَّخرةِ، فإذا زارَتْها الصَّخرةُ، قالتْ: مرحَبًا مَرْحَبًا بالزّائرةِ والمَزورةِ»، وفي حديثٍ آخَرَ قال: «لا تَزالُ طائِفةٌ مِنْ أُمَّتي على الحَقِّ ظاهِرينَ، لِعَدُوِّهِمْ قاهِرينَ لا يَضُرُّهُمْ مَنْ خالَفَهُمْ، – قيلَ: أينَ هُمْ يا رَسولَ اللهِ – قالَ: في بيتِ المَقْدِسِ وأكنافِ بَيْتِ المَقْدسِ»، وقد تنبَّأ الرسولُ، عليه الصلاة والسلام، بفتح القدس، وقال للصّحابيِّ شداد بنِ أوس: «ألا إنَّ الشامَ سَيُفْتَحُ، وَبَيْتَ المَقْدِسِ سَيُفْتَحُ، وَتَكونُ أنتَ وَوَلَدُكَ أئمَّةً بها إنْ شاء الله» (العسلي 1988، ص 17 – 21).

لقد دخلتِ الجيوش الإسلامية فِلَسْطينَ بعد النصر الكبير الذي حقَّقته في معركة اليرموك، إذ توجَّه القائد العربيُّ عامر بن الجراح إلى مدينة القدس وحاصرها، ورفضَ

بطريرك الأرثوذوكس صفرونيوس تسـليمَها، إلّا إلى خليفة المسلمين عمر بن الخطاب، فجـاء الخليفة عمر إلى القـدس فاتحًا، ودخل مدينة القدس، وأعطـى أهلها الأمان على أنفسهم، وأموالهم، وكنائسهم، وطلبَ أهل القدس من عمر بنِ الخطاب ألّا يسكنَ المدينة يهوديًّـا فوافق عمرُ على هذا الطلب، وقد عُرِفَ هذا الاتِّفـاقُ، بالأمان مع أهل القدس، بالعهدة العُمَريّة، وقد نَظَّمَ عمرُ المدينة إداريًّا، ورتَّبَ البريد، وأسَّسَ الحِسبةَ، وقسَّمها إلى مناطقَ، وعَيَّنَ أميرًا لكلِّ مِنْطقة، وأزال الخراب من أسواقها (أبو السعود 2009، ص19).

وعندما دخل الخليفة عمر بن الخطـاب مدينة القدس، دخل معه 4000 من العرب، وسكنوا في المدينة المُقدَّسـة، وتجوَّلَ الخليفة عمر في المدينة المُقدَّسة، وأزال الخراب الذي كان موجودًا فيها، وأثناء تجوالِه شَكا له أحد المسيحيّين أنَّ جنوده قد أكلوا محصوله، فقام بدفع ثمن كامل المحصول للمسـيحيِّ، وكانت السياسـة التي اتَّبعها عمرُ في المدينة، هي أنْ يَبقى جميع الرعايا غير المسـلمين على دينهم مع دفعهم الجزية، وقام الحكم الإسلاميُّ في المدينة المُقدَّسـة بناء على التسامح، والسـلام، والنظام، وظلَّتِ الحياة عاديّةً في المدينة المُقدَّسة نحو ثلاثة قرون، وازدهرت مدينة القدس وفِلَسْطينُ، وأصبحت طريق القوافل بسـبب موقعها وسطَ الدولة الإسلامية، ولم يتغيَّرْ وضع السّـكّان إلّا عددًا محدودًا، فقد هاجرَ بعض الإغريق من المدينة، وجاء مكانهم العرب من مسيحيّين ومسلمين (إسكندر 1999، ص 43 – 44).

وقد جاء في العُهدة العُمَريّة حسـب نصِّ الطبريّ «بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أعطى عبد الله: عمر بـن الخطاب أمير المؤمنين أهل إيلياء مـن الأمان، أعطاهم أمانًا لأنفسهم، وأموالهم، ولكنائسـهم وصلبانهم وسقيمها وبريئها، ولسـائِرِ مِلَّتِها أنَّه لا تُسـكن كنائسُهم، ولا تهدم من قِبَلِ المسـلمين، ولا من حَيِّزِها، ولا من صليبهم، ولا مـن شيء من أموالهم، ولا يُكرهون على دينهم، وعلى أهـل إيلياء أنْ يُعطوا الجزية كما

يُعطي أهل المدائن». شَـهِدَ على ذلك خالد بن الوليد وعمرو بن العاص، وعبد الرحمن بن عـوف، ومعاويـة بن أبي سفيـان، كتب وحـضر سنـة خمس عشرة للهجرة (العويسي 2006، ص 120 – 121).

وفي عهد الدولة الأمويّـة كان للقدس مكانةٌ خاصّة؛ إذ بويع معاوية بن أبي سـفيان أميرًا للمؤمنين في بيت المَقْدس، في شـوّال سنة إحدى وأربعين للهجرة، كما ورد في رواية المسـعوديّ، وفي عهد الخليفة الأمويّ عبد الملك بن مـروان تمَّ بناء قبّة الصخرة المشرَّفة، وبناء المسـجد الأقصى الذي يُسـمّى الحَرَمَ المروانيّ، وقد أقيم هذا المسجد مكان المسجد الـذي بناهُ عمر بن الخطـاب يوم فتح القدس، أي في الطرف الجنوبيِّ من سـاحة الحرم، عِلْـمًا بأنَّ الخليفة الوليد بن عبد الملك هو الـذي أتمَّ البناء بعد وفاة عبد الملك بن مروان، وتمَّتْ مبايعة الوليد بن عبد الملك في مسجد قبَّة الصخرة، ولبناء قبّة الصخرة أهمّيّة دينية، فقد ذَكرتْ بعض النصوصِ التلمودية أنَّ الله خلق الأرض ابتداءً من هذه الصخرة، وأمّا للعرب والمسـلمين، فإنَّ أهمّيّة الصخرة تنبع من أنَّ الرسـول، عليه الصلاة والسلام، قد صعد إلى السـماء من عندها ثمَّ عاد إلى الأرض من المكان نفسِـه، وكانت قِبْلَةَ المسـلمين الأولى (الزبدة 2000، ص 85 – 86).

كانت عاصمة الدولة الأموية دمشـق، وكانت ولاية الشـام مركزَ الدولة الإسلامية، وأمّـا مبايعة الخليفة، فقد كانت تتمُّ في مدينة القدس، وهذا دليل على أهمّيّة مدينة القدس ومكانتها في الدولة العربية الإسـلامية، إذ إنَّ الخليفة الـذي يُعَدُّ الرجل الأوّلَ في الدولة تتـمُّ مبايعته في مدينة القدس، وذلك عائد إلى المكانة الدينية والمُقَدَّسـة في قلوب العرب والمسلمين أينما كانوا.

وفي فترة حكم العباسـيّين تراجعت أهمّيّة ولاية الشـام، وتمَّتْ مبايعةُ الخليفة العباس في الكوفة، وقد حصلت عدَّة تصدُّعات وتشقُّقاتٍ لقبّة الصخرة والمسجد الأقصى، فأمرَ

الخليفة أبو جعفر المنصور بإصلاحها، وحدث زِلزال في عهد المهديِّ بن المنصور تسبَّبَ في انقطاع المُصلّين عن المسجد الأقصى، وفي عهد الخليفة المأمون زار مدينة القدس، وأمرَ بترميم قبَّة الصخرة، وكتبوا اسمه على الفُسَيْفساءِ الموجودة على القبّة، وأزالوا اسم عبد الملك بن مروان، كما زار المدينة الإمام الشافعيّ، وعدد كبيرٌ من العلماء والفقهاء (الزبدة 2000، ص 97 – 99).

ولكنَّ الارتباط العربيَّ الإسلاميَّ بمدينة القدس، بقي قويًّا على اختلاف دولة الخلافة الإسلامية، من عصر الخلفاء الراشدين إلى الخلفاء العباسيّين، إلى الخلفاء الأمويّين إلى غيرهم من الخلفاء، وهذا الارتباط عائد إلى الاعتقاد الدينيِّ لدى الإنسان المسلم بقُدْسية مدينة القدس وأهمّيّتها.

ومدينة القدس تحتضن داخل أسوارها عددًا من أضرحة الصحابة، رُضوان الله عليهم، في مقبرة باب الرحمة يثوي جثامين الصحابة عبادة بن الصامت، وشداد بن أوس وذو الإصبع التميميّ، وهذا دلالة على قُدسيّة القدس وارتباط الصحابة بها، والارتباط العربيّ الإسلاميّ بالمدينة المُقدّسة (العسلي 1988، ص40).

ومن هنا نرى الارتباط العربيّ الإسلاميّ بالمدينة، فقد خصَّها الله بأنْ كانت قِبلةَ المسلمين الأولى وثالث الحَرَمَيْنِ الشريفيْنِ، وكانت مسرى النّبيِّ ومعراجه، وهي قَصْدُ كلِّ الحُجّاج والمعتمرين من مكّة المكرَّمة وإليْها، ودُفِنَ فيها عددٌ من الصحابة، إضافةً إلى إطلاق العرب المسلمين اسمَ القدسِ عليها بعد أنْ كانت تُعرف بإيلياء (محمود 1969، ص 13 – 14).

المحور الثاني: الاحتلال الفرنجيّ للقدس عام 1099م

كان الاحتلال الفرنجيُّ للقدس من أهمِّ الأحداث التي مرَّت بها مدينة القدس، فقد استمرَّ لفترة طويلة، وتعدَّدَ هذا الاحتلال من فترة لأخرى، فقد كان التحرير على يد

صلاح الديـــن، ولكن هذا لا يَنفي عودةَ الاحتلال الفرنجـــيِّ للمدينة مرّاتٍ أخرى بعد التحرير، واحتلالها، وإعادتها لســـيطرتهم. وأهمُّ ما ميَّزَ حروبَ الفرنجة فترتُها الطويلة، واشتراك عددٍ كبيرٍ من الدول الأوروبية فيها.

وتشـــمل أســـباب نجاح الحملة الفرنجيّـــة على المشرق العربي، أســـبابًا عســـكرية وإستراتيجية، واجتماعية، وسياســـية، واقتصادية، وكان من أهمِّ أسباب انتصار الفرنجة هو التمزُّقُ الإقليميُّ، والصراع الســـياسيُّ بين الساســـة، والأمـــراء، والحكّام، والخلاف المذهبـــيُّ الذي فَتَّتَ الأُمَّةَ ومزَّقها، وأنهَكَ قُواها البشرية والاقتصادية، وانعكس هذا على القوّات المســـلَّحة التي لم تســـتطعِ الصمود في وجه الجيوش الفرنجية، إذْ هُزِمَتْ واحتلَّ الفرنجة بلاد الشام والقدس، واستَوْلَوْا على طُرق المواصلات التي تربط بغدادَ، ودمشقَ، والقاهرةَ (غوانمة 1999، ص 25).

كان للخلافات التي أصابت الأُمّة الإســـلامية أثرٌ كبير في إضعافها داخليًّا، فقد انهارَ مفهوم الأُمّة، وحلَّت محلَّه العصبيات العشـــائرية والإقليميـــة، والمَذهبية، والقَبَليّة، حتّى أصبحتِ العصبيـــة منتشرةً داخل المدينة الواحدة، وأصحـــاب الصِّفة العامّة للحياة هي الشَّغَبُ والفوضى، فكانتِ البلاد العربية والإســـلامية فريسةً سهلة للفرنجة لاحتلالها، والسيطرة عليها (الكيلاني 1994، ص 81).

إضافةً إلى التشـــتُّتِ والتمزُّق الذي أصاب الأُمّة الإســـلامية، فإنَّ هناك عاملًا مُهمًّا، وهو غياب العنصرِ العربيّ بتســـامحه، وعدلِه، وتواضعِه عـــن الحكومة المركزية في بغدادَ، وعـــلى الرغم من وجود خليفة عـــربيٍّ في بغدادَ مقرِّ الخلافة العباســـية، إلّا أنّه كان خليفة صُوَرِيًّا ليس بيده شيء، وكلُّ الأمور بأيدي الســـلاجقة، بما عُرِفوا من غطرسة، وبطشٍ، وقـــوةٍ، وأمّا الخليفة العباسيُّ فقد كان غارقًا في اللهـــو، والترف، والبذخِ، وبناءِ القصور. وفي القاهـــرة كانتِ الدولة الفاطمية كذلـــك، وفي الأندلس كان الأَمويّون حالهم أصعبَ

في لَهْوِهِمْ وبَذَخِهِم، وأمّا العامل الآخرُ فقد كان تخاذُلَ القوى العربية والإسلامية نتيجةَ فُقدانِها للحسِّ الدينيّ، والقوميّ، والوعي، الوطنيّ، ففي الوقت الذي كانت فيه أوروبا تُعدُّ العُدَّةَ، وتحشد الجيوش، وتجهِّز الإمكانات، كان الأمراء العرب يتنازعون فيما بينهم، ويُحاربون بعضَهم بعضًا (قنيبي 2004، ص 111 – 112).

قادةٌ مُشتَّتونَ منغَمِسونَ، ومُتخاصمون يُحارب بعضُهم بعضًا، وأُمَّةٌ مُمزَّقة إلى دُويلات خلافةٍ في بغدادَ، وخلافة في القاهرة، وخلافة في الأندلس، وسلاجقة متحكِّمون بأمور الدولة في بغداد، ومماليك يحكمون الدولة الفاطمية في القاهرة، وغياب للحكم العربي الإسلاميّ الفِعليّ، كلّ هذه الظروف جعلت الطريق مُمهَّدًا أمام الجيوش الفرنجية؛ للوصول للمشرق العربيّ، واحتلال القدس.

والحملات الفرنجية على المشرق العربيّ، كان لها عديدٌ من الأسباب والدوافع، وإنِ اختلف المؤرِّخون عليها إلّا أنَّهم أجمعوا على عدد من الأسباب، والتي سوف نوجز عددًا منها.

وقد تميَّزتِ الحملات الفرنجية الّتي استمرَّت لقرنَيْنِ من 1096 – 1194م، من حيثُ موازين القوى إلى أربعة أقسام، خمسونَ سنةً الأولى تُمثِّل فترة التفوُّقِ الفرنجيّ المُطلق في الصراع الإسلاميّ الفرنجيّ، وخمسونَ سنةً الثانية تُمثِّلُ فترة التوازن في القوى بين الفريقين المتصارعَيْنِ، وخمسونَ سنةً الثالثة التفوُّق الإسلاميّ المطلق في الصراع، وخمسونَ سنةً الرابعة انحلالُ القوى الفرنجية في بلاد الشام وزوالها (قنيبي 2004، ص118).

يُجْمِعُ كثيرٌ من المؤرِّخين أنَّ الهدف الذي كان وراء الحملات الفرنجية على القدس والمشرق العربيّ، لم يكن هدفًا دينيًّا كما كان الفرنجة يدَّعون، وما يثبت ذلك حياة الترف، واللهو، والبذخ التي عاشَها ملوك الفرنجة في القدس، وبلاد المشرق العربيّ، وكما أنَّهم أحضروا معهم مجموعاتٍ من النساء الأوروبيّات، وجماعاتٍ من اللُّصوص وقُطّاع الطُّرق؛ مدفوعين بعوامل النهب والسيطرة، وبسطِ النفوذ، وكانتِ الأسباب

الحقيقية هي دُنيويّة سياسية واقتصادية، وكان الضعف، والتناحُرُ، والتخاصم، والتفكُّك، والتشتُّت العربيّ الإسلاميّ في تلك الفترة ظرفًا ملائمًا لنجاح تلك الحملات، ودافَعَ العربُ المسلمون والمسيحيّون عن القدس في وجه الفرنجة الغُزاة، وقام الفرنجة بأعمال وحشيّة وإجرامية في مدينة القدس بحقِّ العرب، سواء كانوا مسلمين أو مسيحيّين على حدٍّ سواءٍ، والّتي تُناقض تعاليم السّيّد المسيح، فقد طردوا الكَهَنَةَ الشرقيّين، ومنعوا أقباط مصر من الحجِّ إلى القدس، وبقي حِرمان الأقباط من الحجِّ إلى القدس، حتّى حرَّرَها صلاح الدين الأيّوبيّ، وسمح للأقباط بالحجِّ للمدينة المُقدّسة (إسكندر 1999، ص50 – 51).

ولا بدَّ لنا من المقارنة، كيف دخل الخليفة العربيِّ عمرُ بن الخطاب مدينة القدس فاتحًا بإعطاء أهلِها الأمان على أموالهم، وأولادهم، وأنفسهم، وصُلبانهم، وكنائسهم، وحرّيّة معتقداتهم الدينية، وكيف فَعَلَ الفرنجة من قتلٍ، وتدميرٍ، وجرائِمَ ليست ضدَّ المسلمين فحسب، بل ضدَّ المسيحيّين من سكّان المدينة المُقدَّسة، وكيف احترم عمرُ بن الخطاب الأماكن الدينية للمسيحيين وأبقاها لهم، وكيف فَعَلَ الفرنجة بالأماكن الدينيّة للمسلمين، خاصّةً المسجدَ الأقصى الذي حوَّلوهُ إلى حظائِرَ للخيول.

وهنا مرَّة أخرى تتجلّى رأفةُ الإسلام والتعاليم الإسلامية الحميدة في التسامح، والتآخي، والمعاملة الحسنة مع المسيحيّين، بأنَّ صلاح الدين الأيّوبيّ القائد هو مَنْ أعاد للأقباط الحجّ إلى القدس بعد أنْ منعهم الفرنجة، وتفنيد المزاعم الفرنجية بأنَّهم جاؤوا لحماية المقدَّسات، فلماذا يمنعون أقباط مِصْرَ المسيحيّين من الحجّ إلى القدس، ولماذا يطردون المسيحيّين الشرقيّين من القدس، ويحتلّون كنائسهم ويُخربونها، ولماذا يقتلون المسيحيّين الأرثوذوكس، ولماذا يقتلون المسلمين، كلُّ هذه الأعمال تدلُّ على النزعة العنصريّة الإجرامية بأنَّ تلك الحملات الفرنجية لا علاقة لها بالدين، ولا بتعاليم السّيّد

المسيح، وإنَّما هي حملات للسيطرة، وبسط النفوذ، وتحقيق الرغبات الدنيوية فقط.

وبينما تُشـير دراسات أخرى إلى أنَّ السبب الحقيقيَّ للحملات الفرنجية كان رغبة بابا الفاتيكان أوربانوس الثاني في الحدِّ من أطماع الأمراء والنبلاء في أموال الكنسية وأملاكِها، وإبعاد أنظارهم كلّيًّا عنها؛ بدفعهم إلى خوض غمار حروب طاحنة في ديار المسلمين ذات الثروة الهائلة، وأمّا السـببُ المباشَرُ لتلك الحملاتِ، فكان الاستنفار العاجل الذي وجَّهه الإمبراطور البيزنطيُّ إليكسيوس كومينوس للبابا أوربانوس الثاني عام 1095م، يحثُّه على تحريض الجماهير الأوروبية وإلهاب حماسـها للقتال ضدَّ المسلمين بعد اجتياح السلاجقة الأتراك لآسـيا الصغرى وتهديدهم المباشَر للقسـطنطينية عاصمـة بيزنطة الشرقية بعد انتصار السلطان السـلجوقيّ ألب رسـلان على الرّوم عام 1071م، في معركة ملاذ كرد التاريخية بآسـيا الوسطى، وأسره للإمبراطور رومانوس ديوجينس، ومعظم قادته (قنيبي 2004، ص 113 – 114).

وفي عام 1095م ألقـى البابا أوربانوس الثاني خُطبة في مدينة كلير مونت الفرنسـية، حرَّضَ فيها الفرنجة على الاسـتعداد للزحف إلى فِلَسْـطينَ والدّيار المقدَّسة، وانتزاع قبر المسيح، ومدينة القدس من الأشرار، وقال كلمته المشهورة: فَلْيَنْطَلِقِ الفرنجة من الغرب لنجدة الشرق، واسـتجابت له جموع غفيرة من أوروبا، وقد ساعد على ذلك قيام الخليفة الفاطميّ الحاكم بأمر الله بهدم كنيسـة القيامة عام 1008م، إضافةً إلى الصورة القاتمة الّتي بثَّها الفرنسيُّ بطرس الناسك عن أوضاع المسيحيّين في مدينة القدس، والتي لقيت نجاحًا لدى الزعماء السياسـيين في أوروبا، ولكنْ هذه الصورةُ لم تكن صحيحةً، إذ كان الزعماء السلاجقة يُعاملون أهالي مدينة القدس بنوع من الشدَّة والقسوة، سواء كانوا مسيحيين أو مسلمين (قنيبي 2004، ص 114).

هذه الظروف مهَّدَتِ الطريق أمام حملات الفرنجة والتي استمرَّت لقرنيْنِ من الزمان

على فِلَسْطينَ ومدينة القدس، وكانت تلك الحملات على شكل موجات تمثَّلَتْ في ثماني حملات.

فالحملة الفرنجية الأولى كانت في عام 1096م، تحرَّكت من أوروبا نحو القدس بـ70 ألف مقاتل من الألمان والفرنسيّين والطِّلْيانِ، وضمت هذه الحملة فئات متعدِّدَة من الجُنْدِ، والتُّجّار، والنُّبَلاء، والمُجرمين، واللُّصوص، والفلّاحينَ، والعاطلين عن العمل، ووصلوا إلى بلاد الشام، وأصبحوا يحتلّون المدينة تِلْوَ الأخرى، وسيطروا على مُدُنِ الساحل كافَّةً، وأقاموا ممالِكَ لهم في كلِّ مُدُنِه، ثمَّ توجَّهوا إلى مدينة القدس، وفي الخامس عشر من تمّوز عام 1099م، دخلَ 12 ألفَ جنديٍّ من الفِرِنجة مدينة القدس، بعد القضاء على حاميتها من الجنود الفاطميّين، من مِصْريّين وسودانيّين، وارتكبوا مجازِرَ وحشيّةً راح ضحيَّتَها 70 ألفًا من المسلمين والمسيحيّين العرب، وأمّا اليهود فقد حرَقَهم الفرنجة في معابدهم، وقد احتمى عددٌ من المدنيّين من أهالي المدينة داخل المسجد الأقصى، إلّا أنَّ الفرنجة اقتحموا المسجد، وقتلوا مَنْ فيه، وَعُيِّنَ القائدُ الفرنجيّ غود فري دي بويون مَلِكًا لمملكة أورشليم الفرنجية (قنيبي 2004، 116 – 117).

وبعد عشرين يومًا من سقوط المدينة عَلِمَ الخليفة الفاطميُّ في مِصْرَ بسقوط القدس؛ فَجَهَّزَ جيشًا وتوجَّه إلى فِلَسْطينَ لاستعادة القدس من الفرنجة، ولكنَّهم الْتَقَوْهُ في عسقلانَ، وهزموه هناك، ولم يستطعِ الوصولَ إلى القدس (سركيس 2001، ص211 – 212).

ويتَّضح من ذلك الارتباط العربيُّ بالمدينة، إذ قاومَ أهل المدينة الغُزاةَ، ودافعوا عن مدينتهم، واستبسلوا في الدفاع عنها، لكنْ قوَّةُ جيشِ الفرنجة، وامتلاكُهُم آلاتٍ قاذفةً للنيران استطاعوا من خلالها، الدُّخولَ للمدينة واحتلالها، ويظهر الارتباط العربيُّ بموقف الخليفة الفاطميِّ في مِصْرَ بتجهيز جيشٍ في فترة قصيرةٍ، بعد سقوط القدس، والتوجُّهِ إليها؛ لتحريرها، ولكنَّه فَشِلَ في معركةِ عسقلانَ عندما هَزَمَه الفرنجة فيها.

وبعــد دخول الفرنجــة القدس في 15 تمــوز 1099م، فقد أجْمَعتِ المصــادرُ اللاتينية والعربية على وصفِ الأعمال البَشِــعَةِ التي قاموا بها، فقد ارتكبوا المجازر، ولم يُفرِّقوا بين شــيخ وامرأة وطفل، فقد قطعوا الرؤوس، وأحرقوا الناس في اللَّهَبِ المُتأجِّجِ وتكدَّسَتِ الطُّرقات بالرؤوس والجُثث، ووصلتِ الدماء بالشــوارع، حتّى رُكَبِ الخيول، وقتلوا ما يقارب 70 ألفًا من المسلمين والمسيحيّين (محاسنة 2002، ص154).

وهكذا بقيت مدينة القدس في قبضة الفرنجة، حتّى جاء صلاح الدين الأيّوبيُّ وحرَّرَها منهم، وهذا ما ســنوضِّحه لاحقًا، ولكن بعد التحرير على يد صلاح الدين الأيّوبيّ أعاد الفرنجة الكَرَّةَ عدَّةَ مرّاتٍ لاحتلال بيت المَقْــدس، ونجحوا في ذلك، ولكنَّهم لم يُعَمّروا فيها طويلًا.

وأمّا الحملات الفرنجيــة الأخرى، فالثانية جاءت لاســتعادة الممالك الفرنجية التي سقطت بيد الزّنكيّين في 1147م، وقادَها ملك ألمانيا، ومَلِكُ فرنسا، ولكنَّها فشلت، وهزمها الجيش السلجوقيّ، وفشــلت في الوصول إلى مدينة دمشــق، وأمّا الحملة الثالثة فكانت بقيادة فيليب أغسطس ملك فرنسا، وريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا وريدريك ملك ألمانيا، وصلوا مدينة عكّا، واحتلّوها، ثمَّ وصلوا مدينة حيفا، وقاموا بالتفاوض مع صلاح الدين، حيث وَقَّعَ صلحَ الرملة معهم في 1192م، والذي أبقى الساحل الفِلَسْطينيَّ من عكّا حتّى عسقلانَ بأيدي الفرنجة، ولم يتمكَّنِ الفرنجة من الوصول إلى القدس واحتلالها، أمّا الحملة الرابعة فتوجَّهت عام 1202م، نحو القدس لكنَّها فشلت ووصلتِ القُسْطنطينيّة، وأقامت دولة لاتينية فيها، وأمّا الحملة الخامسة فكانت عام 1218م، توجَّهت نحو مِصْرَ، ولكنَّها فشــلت، حيث قضى عليها الملك الكامل ملك الأيّوبيّــين في مِصْرَ، وأمّا الحملة السادســة، فجاءت لنجدَةِ الحملة الخامســة التي هُزِمَتْ في مِصْرَ، إلّا أنَّ المِصْريّين قضوا عليها، وأمّا الحملة الســابعة فكانت 1250م، بقيادة ملك فرنســا لويس التاسع توجَّهت

إلى بيت المقدس مـــن خلال مِصْرَ، إلّا أنَّها هُزِمَتْ في مدينة المنصـــورة في مِصْرَ، وتمَّ أَسْرُ الملـــكِ لويس على يد الملك الصالح نجم الدين أيّوبَ، وأمّـــا الحملة الثامنة فقد كانت في عام 1270م، ولكنَّها فشلت عندما وصلت تونس، وهي في طريقها إلى مِصْرَ، واستمرَّتِ الحملات الفرنجية على المشرق العربيِّ، وبقي لهم بعض الممالك في الساحل الفِلَسْطينيِّ إلى أنْ جاء الملـــك الظاهر بيبرس من المماليك، وحَرَّرَ البلاد من بواقي الفرنجة، وكان هذا في 1294م (قنيبي 2004، ص 131 – 132).

المحور الثالث: تحرير القدس على يد صلاح الدين الأيّوبيّ عام 1187م

بعد التَّشـــتُّتِ الذي أصاب الأُمّة الإســـلامية، جاءت مرحلة الصَّحوة العربية، والتي تمثَّلت بظهور عماد الدين زنكي، والذي حقَّقَ انتصاراتٍ على الفرنجة في شمال بلاد الشام، وبعد أنْ توفِّيَ خَلَفَه نور الدين زنكي الذي سار على الدَّرب نفسِه، وعمل على توحيد المُدُنِ الإســـلامية تحت إِمْرَتِه، وعندما تولّى صلاح الدين الوزارة في مِصْرَ تحقَّقَ حُلم نور الدين زنكـــي بتحقيق الوَحْدَةِ بين مِصْرَ، والشـــامِ، والعراق تحت إِمْرَتِـــه، وبعد وفاة نور الدين زنكي تـــولّى صلاح الدين الأيّوبيّ القيادة، وحافظ على وَحْدَةِ البلاد العربية الإســـلامية، وعمل على بناء قوة عسكرية كبيرة تستطيع مواجهـــة الفرنجـــة، وفي سنة 580 هجرية، عمـــل صلاح الديـــن على حشـد قوّاتـــه من الجزيـــرة، والشام، ومصـر، والعراق (غوانمة 1999، ص 33 – 35).

مرحلة الإعداد، وتوحيد الأمّة العربية والإسلامية لنصرة بيت المَقْدِس، اكتملت تلك المرحلـــة بعد أنْ وَحَّدَ صلاح الدين البلاد العربية تحـــت إِمْرَتِه، وبعدها أصبح يعدُّ العُدَّةَ لتحرير المدن العربية من المحتلّين، وجَهَّزَ جيشًا قادرًا على مطاردة الغُزاة وهزيمتهم.

واســـتنفر القوّات من جميع أنحاء دولته، وأصبحتِ العســـاكر تتقاطر على دمشق من المَوْصِلِ، والجزيرة، وأربيل، وديار بكر، ومِصْرَ، والشـــام، وظـــلَّ صلاح الدين مُقيمًا في

دمشق حتّى انتهت سنة 882 هجرية، وبعدها توجَّه صلاح الدين بجيوشه نحو القدس، حيث وصل مدينة طبرية، وأقام فيها خمسة أيام، وبعدها تحرَّكَ جنوبًا، حيث التقى الفرنجة في حِطّينَ، وهزمهم هزيمةً عظيمة، وكان ذلك في 25 ربيع الثاني 583 هجرية الموافق 4 تموز 1187م، وبعدها توجَّه صلاح الدين لتحرير مُدن الساحل حتّى وصل مدينة القدس، وحاصرها لمدَّة أربعين يومًا، ودخلها بأمان في يوم الجمعة 27 رجب 583 هجريّة الموافق 12 تشرين أول 1187م، وكان يومًا عظيمًا رُفعت فيه رايات الإسلام على أسوارها وأُعيدت المدينة إلى عهدة العرب والمسلمين بعد غياب طويل (غوانمة 1999، ص 35).

كانت المدينة مُحصَّنة بـ60000 جنديٍّ فرنجيٍّ، وعرض صلاح الدين عليهم الاستسلام، فرفضوا، ودار قتال عنيف وتمكَّن المسلمون من اختراق السور؛ ما أجبرَ الفرنجة على الاستسلام، وطلب الصلح، فوافق صلاح الدين، وفَتحت مدينة القدس أبوابها لصلاح الدين في 12 / 10/ 1187م (إسكندر 1999، ص55 – 56).

وعند دخول صلاح الدين المدينة أنزل الصليب من فوق قبَّة الصخرة، وأمر بتطهير المسجد الأقصى من القاذورات، ثمَّ ارتفع صوت الأذان في المسجد الأقصى لأوَّل مرَّة منذ 88 عامًا، وأمر صلاح الدين بإحضار المنبر الذي أشرفَ على صنعه السلطان نور الدين زنكي ووضعه في المسجد الأقصى، وأعاد تنظيم المدينة المقدَّسة، وتدبير شؤونها، واسترجاع وجهها العربيّ الإسلاميّ (قنيبي 2004، ص 130).

وبعد تحرير القدس قام الأيّوبيّون بالعديدِ من الأعمال في المدينة المقدَّسة، فقد أقاموا عددًا من البيمارستانات، وهي مشافٍ يتمُّ فيها علاج المرضى، وفي عام 1191م قاموا ببناء المدرسة الصلاحية، وترميم أسوار المدينة المقدَّسة، وأمّا الأهمّيّة الكبرى للقدس في العصر الأيّوبيّ فقد كانت في عام 1219م، عندما اتَّخذ الملك عيسى الأيّوبيّ القدس المقرَّ الرئيس

للدولة (ياسين 2005، ص 21 – 22).

ويَعتقد بعضُهُمْ أنَّ صلاح الدين عندما حَرَّرَ القدس من الفرنجة لم يَعُدْ إليها الفرنجة، ولكـــن هذا اعتقاد غير صحيـــح، فقد جاء الفرنجة بعد وفاة صـــلاح الدين إلى القدس، وعادت تحت سيطرتهم.

وبعـــد وفاة صلاح الدين الأيّـــوبيّ، بدأ الخلاف في البيت الأيّـــوبيّ واتفق الإمبرطور الرومانيّ فريدريك الثاني ملك الفرنجة على تسلُّمِ القدس ما عدا المسجدَ الأقصى من الملك الكامل أحد ملوك الأيّوبيّين ســـنة 626 هجريّة، وبقيـــت بيد الفرنجة حتّى 637 هجريّة، حيث جاء الملك الناصر ابن أخ الملك الكامل واســـتردَّها منهم، ولكنَّه أعاد تسليمها مرّة أخرى للفرنجة ســـنة 641 هجريّة، ثمَّ أعيدت للمسلمين نهائيًّا سنة 642 هجريّة، عندما حرَّرها الخوارزمية جنود الملك نجم الدين أيّوب ملك مصر (القاسم 2004، ص 213).

وكان للمماليـــك دَوْرٌ مُهمٌّ في تطهير بلاد الشـــام من بقايا الفرنجـــة، وكان هذا الدَّور بقيادة الظاهر بيبرس، والذي تمكَّنَ من تحرير إمـــارة أنطاكيا من الفرنجة، وحرَّرَ الرملة، وصفدَ، وقيساريةَ، وقلعة الشقيف، وقام بزيارة مدينة القدس عدَّة مرّاتٍ، وأعاد بناء قبّة الصخرة، وبقيت مدينة القدس في عُهدة المماليك، حتّى عام 1516م، حتّى تمكَّنَ السلطان العثمانيّ سليم الأوّل من انتزاعها من أيديهم (قنيبي 2004، ص 143).

الخاتمة

وبعد كلِّ ما قدَّمناه في هذه الدراسة، نرى أنَّ القدس عربية، وهي جزء من بلاد الشام التي تُعَدُّ ضمن الجزيرة العربية، وســـكّان القدس هم من العرب، وعندما جاء الإســـلام كانت تدعى إيلياء فسمّاها العرب المسلمون بيتَ المَقْدس أوِ القدسَ، وأمّا ما يتعلَّق بوجود شـــعوب أخرى في هذه المدينة، فإنَّ هذا الوجود كان مارقًا، أيْ لفترة بسيطة، وبعدها كان مصيرُه الزَّوال والفناء.

ونلحظُ أنّه في ظلِّ حالة التمزُّق والتشـتُّتِ التي عاشتها الأمّة العربيّة والإسلامية، تمَّ الاعتداء عليها، واحتلال أرضها، وتدنيس مُقدَّسـاتها، وإذلالها لقرن من الزمان، وبقيت إلى أنْ جاء صلاح الدين، وَوَحَّدَ الأُمّة العربية من دمشـق إلى بغداد إلى مصر، إلى الحجاز، وأعـاد ترتيب أوضاعها الداخلية وتنظيمها، وعمل على تجهيز الجيوش من البلاد العربية كافَّةً، لمواجهة الفرنجة حتّى مَنَّ الله عليه بالنصر، واسـتعادة الأراضي العربية الإسلامية المحتلَّة من الغُزاة، وفي هذا دروسٌ كبيرة بأنَّه في ظلِّ الفُرقة والتمزُّق، لن تُسـتعادَ الكرامة العربية، ولا الإرادة العربية، ولا المقدَّسـات العربية المسـيحيّة والإسـلامية، فلا بدَّ من الوَحْدَة قبل أيِّ تحرُّكٍ؛ لأنَّ الفشل سيكون حليفَه في ظلِّ الانقسام الذي نَعيشه، سواء على المستوى العربيِّ، أوِ المستوى الوطنيّ.

وهنا حقيقة للتاريخ أكتبها، فالقدس مدينة عربية مسـيحية إسلامية، وستبقى محافظة على طابَعِها العروبيّ المسـيحيّ والإسـلاميّ، ومهما اسـتعلى الباغـي، وعربدَ الطاغي (الاحتلال)، فسـتبقى القدس عاصمة الدولة الفِلَسْـطينيّة عربية مسـيحيّة إسـلامية، مهما طـال الزمان، وفي البُعد التاريخيّ عِبرةٌ، لذلك فقـد جاءها غُزاةٌ كثيرون، واندثروا، ودُحروا، فكثيرٌ من الشعوب سـكنتِ المدينة المُقدَّسة، ولكنَّها في النهاية آلتْ إلى الزوال، وفي البُعد الدينيّ عبرةٌ، ووعدٌ للمسـلمين في سورة الإسراء بتحرير القدس، وعودتها إلى الإسلام والمسلمين.

المراجع

1) أبو السعود، خلدون. 2009. أثر الاحتلال الإسرائيلي على حقِّ السيادة الفلسطينية على مدينة القدس وفقًا لأحكام القانون الدولي. رام الله: مركز إعلام حقوق الإنسان والديمقراطية شمس.

2) إسكندر، ميخائيل. 1999. القدس وبيت لحم. القاهرة: مكتبة المحبة.

3) الزبدة، عبلة. 2000. القدس تاريخ وحضارة. بيروت: دار نعمة للطباعة.

4) سركيس، خليل. 2001. تاريخ القدس المعروف بتاريخ أورشليم. القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية.

5) شراب، محمد. 2006. القول المبين في تأريخ القدس وفلسطين. دمشق: مؤسَّسة فلسطين للثقافة.

6) العسلي، كامل، 1993. القدس في التاريخ وملاحظات حول نشأة المدينة وتراث التسامح الإسلاميّ. الرباط: الندوة العالمية حول القدس وتراثها الثقافي في إطار الحوار الإسلامي المسيحيّ.

7) العسلي، كامل. 1988. مكانة القدس في تاريخ العرب والمسلمين. عمّان: وزارة الشباب.

8) علي، محمد. 1975. مدى شرعية السيادة الإسرائيلية في فلسطين. القاهرة: عالم الكتب.

9) العويسي، عبد الفتاح. 2006. تقديم بيت المقدس. القاهرة: دار الفكر العربي.

10) غوانمة، يوسف. 1999. صفحات من تاريخ القدس وفلسطين والأردن في العصر الإسلاميّ. عمان: دار الفكر.

11) القاسم، أحمد. 2004. مدينة بيت المقدس. رام الله: دار البيرق العربي للنشر والتوزيع.

12) قنيبي، عصام. 2004. المدينة المسحورة دراسة موجزة في تاريخ مدينة القدس. دمشق: دار الطليعة الجديدة.

13) الكيلاني، ماجد عرسان. 1994. هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس. المعهد العالمي للفكر الإسلامي. فيرجينيا. الولايات المتحدة الأمريكية.

14) القدس. رام الله: مركز بيت المقدس للأدب والترجمة.

15) محاسنة، محمد. 2002. تاريخ مدينة القدس. عمان : دار حنين للنشر والتوزيع.

16) محمود، عبد الحليم. 1969. بيت المقدس في الإسلام. القاهرة: مجمع البحوث الإسلامية.

17) ياسين، رياض. 2005. موجز تاريخ القدس، سجل لأهم المحطات التاريخية. عمان: اللجنة الملكية لشؤون القدس.